الفصل الأول

المطلع

(ضابطه ـ مقداره ـ مفرداته وإشارتها إلى المقصد
أحوال تراكيبه وإشارتها إلى المقصد وعناصر البيان عنه)

أولا : ضابطه :

لغة : مصدر ميمي للفعل (طلع) وفتح اللام هو القياس ، والكسر هو الأشهر وقد ذكروا أن الحرف إذا كان من باب فعل يفعُل (بضم العين) أثرت العرب في الاسم منه والمصدر فتح العين ، فجعلوا الكسر علامة للاسم والفتح علامة للمصدر ، والذي في قوله : ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ** ﴾ بكسر العين اسم موضع ، والطَّلْعَةُ (بفتح الطاء) ما طلع من كل شيء والوجه ، وطليعة الجيش : أول من يطلع ، وكل ما بدا لك من علو فقد طلع عليك . ومن المجاز : طلع علينا فلان : هجم وما هذا الإنسان في طالعة إبلكم : في أولها ، وحيا الله تعالى طلعتك[1] ، والبلاغيون

(١) راجع : أساس البلاغة ، والمفردات في غريب القرآن ولسان العرب والمصباح المنير والمعجم الوسيط مادة (طلع) .

والنقاد يطلقون (المطلع) على أول كل كلام ، ويسمونه (براعة الاستهلال) أو (حسن الابتداء) أو (الإلماع) أو (حسن الافتتاح)[1] والمصطلح الأول أجمعها ، إذ هو يشمل الاستهلالات الجيدة والرديئة ، وما جاء مشيرا إلى المقصد ، وما جاء على غير هذا الوجه الآخر ، أو قل باختصار إن الإطلاقات الأخرى غير المطلع إطلاقات ناظرة إلى أوصاف في المطلع ، وذلك من المعنى اللغوي بسبب وثيق ، فهم يقولون : ما هذا الإنسان في طالعة إبلكم ، أي ما يحسن أن يحظى بهذا الموضع ، لأن وجوده كذلك كاشف عن سمة القوم وقدرهم ، وكذلك قولهم : طليعة الجيش : أول من يطلع ، فذلك الأول يكون أشجعهم وأقدرهم بلا ريب وقولهم في الطَّلعة بفتح الطاء : ما طلع من كل شيء والوجه ، دال على أن المطلع هو الدال على هيئة الشيء ، فالوجه هو مناط التفرس في سيما خلائق الإنسان ، ولا ريب أنهم كانوا يعنون كل هذه المعاني في إطلاقهم المطلع على أوائل الكلام ، وما اشترطوه له ، فطلع الكلام دال على بقيته ، ومقياس جودته عندهم أن يكون مما قدم له من الكلام بسبب وثيق ، كتلك الصلة التي بين وجه كل إنسان وجسده فالقصيدة أو الرسالة أو الخطبة عندهم خلق واحد ، كما لا يمكن استبدال وجه إنسان بوجه إنسان آخر ، لأنه يجري فيهما دم واحد ، ويرتبطان ارتباطا يستحيل فصله كذلك ينبغي أن تكون أوائل الكلام موصولة به ، ولأن القرآن كلام الله كما أن الإنسان خلقه وكلاهما إعجاز فإنك ترى مطالع سور القرآن الكريم ملتصقة بمقاصدها مترجمة عن سيما البيان في السور كترجمة وجه الإنسان عن طبائعه ، وكل من عند الله ـ جل وعز ـ يستكشف ذلك ذوو الفراسة أهل البصيرة كما حاولنا جمع نثاره في بيان أعيان علماء الأمة عند كل سورة .

---

(١) راجع : براعة الاستهلال عند البلاغيين في التمهيد لهذا البحث .

مطلع السورة في القرآن الكريم :

هو الجملة الأولى ـ اسمية كانت أو فعلية ٠ وتوابعها من عطف البيان والنسق والبدل والنعت وغير ذلك في صدر كل سورة من سور الذكر الحكيم ، وذلك أدق ضبط انتهت إليه هذه الدراسة ، على أنهم قد اختلفوا في تحديد مطالع القصائد[1] اختلافا بينا فمن قائل : إنه البيت الأول ، ومن قائل إنه العنصر الأول أي المقدمة طللية كانت أو غزلية أو غير ذلك ، وعليه فقد يصل المطلع إلى خمسة أبيات أو عشرة أو أقل من ذلك أو أكثر . أما في القرآن الكريم فالوجه كما رأيت بل كأن القرآن الكريم كله سورة واحدة الفاتحة مطلعها الجامع لمعاني القرآن الكريم كما ذكر سيدنا النبي ﷺ .

ثانيا : مقداره :

يختلف مقدار مطلع السورة قصرا وطولا حسبما جاء عليه تركيب الجملة الأولى وتوابعها ، فقد يصل إلى عدة آيات كمطلع سورة البقرة ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ وكل هذه الآي متداخلة ومتشابكة ، ونابعة من رحم الجملة الأول كما هو ظاهر .

وقد يكون المطلع آيتين كمطلع آل عمران ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ ، أو آية واحدة كما في الأنفال : ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ

(١) راجع : من تراث الباحثين عن علاقة المطالع بالمقاصد في الشعر في التمهيد لهذا البحث .

﴿ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، ومطلع سورة التوبة ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، ومطلع المائدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ ، وكذلك سورة النحل ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ، وسورة قريش ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ ، وسورة الإخلاص ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتان ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ وهذه القصار تشبه أن تكون جملة واحدة ، إلا أنك تستطيع أن تعد الجملة الأولى مطلعا للتوابع المذكورة في السورة بعد[1] .

ثالثا : مفرداته وإشارتها إلى المقصد :

يبتدأ دائما بحصر مفردات المطلع والتعرف على معانيها ، وجمع كلام أهل العلم حولها ، دون رد لقول حتى لو كان مردودا عند بعض أهل العلم وفي كثير من المفردات المطالع تجد غرائب في تفسيرها ، ولا ريب قد ذكرها أعيان أهل العلم ، كما مضى من جري جار الله على تفسير لفظ الكتاب بالسورة في مطلع كل سورة صدرت بذكر الكتاب[2] ، وهذه الغرائب في بيان معاني مفردات المطالع تفتح باب لاستكشاف الصلة بين المطالع وبين آي السورة ، يتسع ذلك الباب باستخراج محل نظر العلماء في السورة ، وكثيرا ما تجد أهل العلم يصطحبون معاني المفردات

---

(١) راجع : الافتتاح بالتعليل في سورة قريش والافتتاح بالأمر في سورة الإخلاص والمعوذتين .

(٢) راجع : الافتتاح بحروف التهجي من هذا البحث .

المذكورة في المطالع في تفسيرهم آيات السورة كما ذكرنا من اصطحاب محمد بن جرير ـ رحمه الله ـ لمعنى ﴿ يَعۡدِلُونَ ﴾ في مطلع سورة الأنعام وأحلنا على مواضع قوله : (قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم)[1] أو يقول هؤلاء العادلون بربهم .

وتنفرد كثير من مطالع السور بمفردات لا توجد في غير موضعها ، وهو من المعالم الدالة علىتفرد المطالع بخصائص ومعانٍ ، لا توجد في نظائره من ذلك مثلا تفرد مطلع المائدة بهذا اللفظ (العقود) وتفرد الأنفال بهذا اللفظ (الأنفال) وتفرد التوبة بهذا اللفظ ﴿ بَرَآءَةٌ ﴾ وتفرد الأنعام بهذا اللفظ ﴿ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾ وقريش ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴾ والكهف ﴿ قَيِّمًا ﴾ والهمزة ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾ والمطففين ﴿ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴾ وهكذا كثير من السور المفتتحة بالقسم ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ﴾ و ﴿ وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ ﴾ و﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ ﴾ و﴿ وَٱلَّيۡلِ ﴾ و ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ﴾ و ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ و ﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ في الافتتاح بالجملة الخبرية ، وحينئذ يجب إيلاء هذه الألفاظ اهتماما بالغا ، لأنها حينئذ معلم المقصود الذي تسعى السورة بتراكيبها إليه ، كما رأينا في سورة المطففين ، وسورة قريش وسورة الفلق ، وسورة المائدة والأنعام والأنفال في مواضعها من هذا البحث .

وتكون هذه المفردات معالم للتمييز عند تقارب المطالع كتقارب مطالع آل حم مثلا ، فإنك تجد مطلع سورة غافر يتميز بقوله : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ـ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ـ ذِي ٱلطَّوۡلِ ﴾ عن باقي آل حم ، وهي حينئذ قطب استكشاف المقصد الذي تتظاهر سورة غافر على بيانه ، وكثيرا ما تجد

(١) راجع : الافتتاح بالثناء في سورة الأنعام من هذا البحث .

أهل العلم يرجحون من معاني المفردات ما يتطابق ومعنى السورة ، كما ذكرنا في مطلع النساء وما فسروا به معنى (العقود) في المائدة[1] .

والمفردات الخاصة في المطالع قد تكون من وسائل استكشاف المقصود كما بيناه بكلام ابن الزبير والبقاعي ـ رحمه الله ـ من ذلك ما ذكره البقاعي عند سورة المائدة والكهف والمطففين وكثير من المواضع كما هو شائع في هذا البحث ، والذي ينبغي تأكيده في هذا الموضع أن النظر في مفردات المطالع يكون بكلام أعيان العلماء ، ومقترنا بالنظر إلى آي السورة بكلامهم أيضا ، وحينئذ يستكشف بتأثرهم ـ الخيوط الدقيقة التي تعقد بين المطلع وبين آي السورة كما ذكرناه في مواضعه بفضل الله ومنه .

رابعا : أحوال تراكيبه وإشارتها إلى المقصد وعناصر البيان :

ونعني بذلك أحوال النظم في المطلع من غير تفريق بين أن تكون هذه الأحوال من علم المعاني أو علم البيان أو علم البديع ، لأن النظم هو توظيف الأحوال النحوية على وفق الأغراض المعنوية ، وليست المزية للأحوال النحوية لذاتها كما يقول الإمام عبد القاهر ، وإنما المزية بحسب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام[2] كما قال رحمه الله :

ويسلك في ذلك مسلكي التحليل والموازنة وهو ما يوجب التأمل في أحوال الكلام ، والاجتهاد البالغ في تحديد الفروق ، ورصدها في المطالع المتقاربة ثم محاولة استبصار علل لهذه الفروق وفقهها ، ويأتي ذلك على الوجه الذي بيناه في فقه المفردات بكلام أعيان أهل العلم أيضا ، ويكون النظر في تراكيب المطالع مقترنا بالنظر في تراكيب آي السورة ، ومقترنا

(١) راجع : الافتتاح بالنداء في سورتي النساء والمائدة من هذا البحث .
(٢) راجع : دلائل الإعجاز ص٨٧ .

بالنظر في تراكيب المطالع المتقاربة كما تؤمى إلى ذلك مطالع الذكر الحكيم تأمل مطلع سورة الحجر ﴿ الٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾ ومطلع سورة النمل ﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ﴾ وكيف أومأ القرآن بالتقديم والتأخير بنفس المواد اللغوية في الموضعين ، إلى التباس المراد في الموضعين والتمايز بين الفرضين في آن واحد . وكذلك أول سورة يونس ﴿ الٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ وفي لقمان ﴿ الٓمٓ ۝ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ وكيف أشار القرآن بالتقارب بين الحروف المقطعة في الموضعين إلى تقارب الغرضين وأشار بالمغايرة بين الراء والميم إلى الفرق بينهما ، وكيف كان كذلك أيضا في مطلع سورة يونس ﴿ الٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ وفي الرعد ﴿ الٓمٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ ﴾ وتتقارب السورتان في المراد بسورة يونس ومقصودها : وصف الكتاب بأنه من عند الله ، ومقصود سورة الرعد (وصف الكتاب بأنه الحق في نفسه) والذي في المطالع إيماء إلى وجوب الموازنة بين آي السورتين ونمط البيان فيهما .

ومن البديع في القرآن الكريم أنك ترى للتقديم والتأخير وغير ذلك آثارا بينة في آيات السورة ، وترى ما جاء تابعا في المطلع ، جاءت الآيات المتعلقة به في السورة تابعة للغرض الأصلي ، وتقديم التوابع في المطلع قد يكون إيماء لأهميتها ، وإشارة إلى أنه سيكون أقوى العناصر بيانا عن الغرض الذي يحمله المطلع ، فمقصود البقرة مثلا وصف الكتاب بأنه هدى للمتقين وما عدا ذلك فتوابع ولوازم ، الملحوظ في توابع هذا المطلع أنه قدم وصفهم بالإيمان بالغيب على التوابع الأخرى ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ . . . ﴾ قبل الصلاة والإنفاق ، وأخر قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ وهذا النسق فيه إيماء إلى أن قطب التقوى الإيمان

بالغيب ، ومدار الإيمان بالغيب الإيمان بالبعث الذي بعده جزاء المتقين الذين نزل الكتاب هدى لهم ، ولما كان أمر السورة كذلك اختصت السورة بذكر أدلة البعث في تسلسل بديع بدأت بذكر بيان عدم معرفة الملائكة بالغيب ، ولا الجن ولا السحرة ولا الناس ، واختصت السورة بذكر قصص الإحياء بعد الإماتة ، وبدأت بقصة السبعين الذين صعقوا ثم أحياهم الله من قوم موسى ، ثم قصة البقرة أقوى القصص جميعا في الدلالة على البعث ، ثم قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، ثم محاجة إبراهيم عليه السلام النمروذ لعنه الله ـ ومحاجته في أن الله يحيي ويميت ، ثم قصة إبراهيم عليه السلام في إحياء الأطيار ، وظهر أثر هذا السياق ظهورا بينا في مضاعفة ثواب الإنفاق في سبيل الله ، وكيف جاء مشتملا بسياق البعث . كما بيناه في موضعه بفضل الله ومنّه ، وبعد عرض الإيمان بالبعث والغيب، وأركان التقوى تختم السورة بقوله : ﴿ **ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ** ﴾ وهي عين ما قيل في أوصاف المتقين في المطلع ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ** ﴾ إلا أنك ترى فرقا بديعا ينبهك إلى تشارب آيات السورة من غرض واحد ، فقد عبر بالمضارع أولا ﴿ **يُؤۡمِنُونَ** ﴾ وبعد العرض عبر بالماضى ﴿ **ءَامَنَ** ﴾ والأول لا يدل على تحقق الوقوع كدلالة الثاني على ما يعرف أهل الفن[1] وهو ظاهر في أن مطلع السورة هو وجهها الذي يجمع سماتها ونمط معانيها .

من ذلك أيضا هذا الطباق الذي تراه في مطلع سورة الأنعام ﴿ **ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ** ﴾ وقد بينا اختلاف العلماء هل المراد بهما الحقيقة أم المجاز ، ورجحنا أن يكون مرادا بهما الحقيقة والمجاز معا بالنظر إلى آيات السورة ، وهو باب عالٍ من أبواب

(١) راجع ما أبصرناه بكلام العلماء في الافتتاح بحروف التهجي في سورة البقرة .

بلاغة الذكر الحكيم ، من أثر ذلك أن رأينا ـ كما أفضى إليه مسلك الموازنة ـ أن مادة (هدى) ومتصرفاتها قد ذكرت في أربعة وعشرين موضعا من السورة ، وأن مادة (ضل) ومتصرفاتها وقعت في أحد عشر موضعا من السورة ، ومع أن مادة (هدى) ومتصرفاتها وقعت في البقرة في تسعة وعشرين موضعا من السورة ، ومادة (ضل) ومتصرفاتها وقعت في النساء في ثلاثة عشر موضعا ، إلا أن المادتين لم تقعا متقابلتين غالبا ، كما وقعتا متقابلتين في الأنعام غالبا ، ومن أثر ذلك أيضا أن السورة استأثرت بمحاجة إبراهيم قومه في الإله على وجه الهداية في اتباعه فيما يقول ، والضلال في وجه اتباعهم فيما يعبدون ، وجاءت تشبيهات السورة متناسجة مع هذا البيان ﴿ **قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَا . . .** ﴾ وقوله : ﴿ **فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ . . .** ﴾[1] .

وكذلك تصدير سورة التوبة بقوله : ﴿ **بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ . . .** ﴾ وكيف دلت على المعاداة وأومأت إلى القتال ، وتقطيع كل الأواصر ، وتقطيع الأرحام ما دام أهلها على غير ملة المسلمين ، وهكذا تجد أصداء المطالع شائعة في السورة تتعالى في النداء على أن السورة تسعى بتراكيبها إلى مقصد واحد ، وكان النظر إلى تراكيب مطالع السورة ودلالتها من الوسائل الكاشفة عن مقصود السورة ، كما هو شائع في هذا البحث .

* * *

(١) راجع الافتتاح بالثناء في سورة الأنعام من هذا البحث .